

الشعر الجاهلي في عيون المستشرقين ملامح الصورة الذهنية في الكتابات الاستشرافية
عند كارل بروكلمانPre-islamic poetry in the eyes of Orientalists Features of the mental image
in Orientalist writings by Karl Bruckelmann

أ.د. جلال عبد القادر

جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس (الجزائر)

aekjalal79@gmail.com

بوحوص سميجتة*

جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس (الجزائر)

samihabouhaous@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/23

تاريخ الاستلام: 2025/08/17

ملخص:

يركز المقال على الصورة الذهنية التي رسمها كارل بروكلمان للشعر الجاهلي في كتابه تاريخ الأدب العربي، مبينا خصائص القصيدة من حيث الشكل والمضمون، وتحليل وظيفتها في المجتمع الجاهلي. كما يتناول تطور الشعر العربي بعد الجاهلية، ومنهج بروكلمان في قراءة النصوص وتفاعله مع البيئة والثقافة ضمن رؤيته الاستشرافية لتحولات الذائقة الأدبية العربية. الكلمات المفتاحية: كارل بروكلمان، الشعر الجاهلي، تاريخ الأدب العربي، الصورة الذهنية، الوظيفة الشعرية.

Abstract:

This article focuses on Carl Brockelmann's mental portrayal of pre-Islamic poetry in his History of Arabic Literature, highlighting the features of the poem in form and content, and its function in ancient Arab society. It also examines the development of Arabic poetry after the pre-Islamic era, Brockelmann's method of reading poetic texts, and his interaction with the geographical and cultural context within his broader Orientalist perspective on the evolution of Arab literary taste.

Keywords: Karl Bruckelmann; pre-islamic Poetry; History of Arabic Literature; Mental Image; Poetic Function.

1. مقدمة:

لظالما شكل الشعر الجاهلى حجر الزاوفة فى دراسة الأدب العربى القاءم؁ بوصفه أقاءم النصوص اللف وصلء إلنا تعبفرا عى الوجدان العربى وصورءه الحضارفة المبكرة. ولأن الشعر الجاهلى لا فقرأ من فراغ بل ففهم من سفاقه الشفافى والأنشروبولوجف؁ فقد اءئذب اءتمام عاء من المسشرقىن الذىن سعوإ إلى فهم بلفة المءمع العربى من آلال نصوصه الشعرفة؁ من بفن هؤلاء برز اسم المسشرق الألماني كارل بروكلمان؁ الذى لم فقتصر اءتمامه بالأدب العربى على الصنف التاريخى أو التأرفخ للأعلام؁ بل آاوزه إلى مأولة رسم ملامح الذهنفة الأدبفة العربفة فى بءافاءها؁ مءساءلا عى وظائف الشعر وأغراضه؁ ونمط تلقفه فى المءمع الجاهلى؁ هذه النظرة اللف امءزج ففها الحس النقاءى بالمناهج التاريخف؁ جعلء من بروكلمان شآصفة مأورفة فى مسار الاسشراق الأدبف؁ لفس لأنه أعاء قاءم الشعر العربى للغرب فحسب؁ بل لأنه تعامل معه بوصفه مفأاآا لفهم العقل العربى؁ ووسلفة لاكشاف الآولات الجمالفة والفكرفة فى بفة لا تملك تأرفا مأونا بمعناه الرسمف؁ لذا فإن هذا المقال فسعى إلى اسآقصاء صورة الشعر الجاهلى كما ظهرت فى كتاباء بروكلمان؁ لفس من زاوفة الآوفف ففقط؁ بل من آفء ما اكشفه تلك الصورة من آلففااء فكرفة وأفءبولوجفة؁ آآاوز المضمون الأدبف إلى ملامسة البلفة الذهنفة اللف كوفا المسشرقون عى هذا الآراث.

كان ولافزال الشعر الجاهلى فآئل مكانة مأورفة فى بلفة المءمع العربى القاءم؁ آفء لم فكن الشاعر مأرء كآلة من الأحاسفس بل كان الناطق الرسمف لقبلفله والمؤرخ لمفاآرها وبطولاتها؁ فءافع عنها بشعره ففما فقابله من مفاءفن: غزل؁ فآر؁ رثاء وماء... وقاء مثل الشعر الجاهلى آربة آصبة للمسشرقىن لآنوع ما فآمله من ففم اءتماعفة؁ ثقاففة ولغوفة مأآلفة آسآءعف البآء لمأولة الوصول إلى العقل العربى عفر نآاآه الأدبف؁ لكن سعى المسشرقىن المسآمر لم فكن معزولا عى وآهة نظرفم وآصوراآفم للشاعر الجاهلى؁ جمءء بفن الإعآاب ببلاغآه وفصاآآه والآشكفك فى نزاهة روافآه وآآى فى وآوؤه أآفانا وانصب اءتمامفم فى دراسة الأدب العربى على آوانب عاءفة "فءرسوا تأرفآه وآطوره وففمآه وأصالآه وعصوره ونآضآه وآأآره وآزءهاره وانآطاطه وانآآاله وسرقاآه؁ وآأآره وآأآفزه وأعلامه"¹.

هذا ءلفل على شمولة اءتماماء المسشرقىن بالشعر الجاهلى؁ آفء فءرسوه من مأآآلف آوانبه التأرفآفة والفنفة؁ مبرزفن أصالآه وانآآاله؁ إضاافة إلى ففاوء نظرفم آوله.

2. أثر البيئة الجغرافية في تشكيل الصورة الشعرية عند الانسان الجاهلي:

لا يمكن فهم الشعر الجاهلي ولا دراسته بمعزل عن الصحراء، تلك البيئة التي شكلت وعي الانسان القديم، ركز عليها بروكلمان وهو يدرس الشعر الجاهلي إذ ربط حضور البيئة في كل تفاصيل القصيدة من خلال تعابيرها وتشبيهاتها، بحيث تمتزج ذاته مع الطبيعة الصحراوية، فالشاعر الجاهلي لا يصف محيطه فقط بل يذوب في طياته لتصبح الرمال تعبيراً عن ألمه، والسراب انعكاس للخيبة والناقة دليل على الوحدة ودلالة استحضر المكان دلالة على تجربة الشعر الوجودية.

بروكلمان حين عالج هذه الصور والمظاهر المتكررة من ذلك الواقع القائم على الترحال بحثاً عن الكأ والماء بما تحمله من قسوة مناخية شكلت عاملاً محفزاً للشاعر، لا معيقاً له تعكس معاناة وجودية تتكرر مع كل قصيدة ينظمها، بحيث يحوّل تجربته اليومية الصعبة إلى صورة مليئة بالإيحاء، ومن اللافت للنظر أن بروكلمان لم ينظر لهذا التفاعل بين الشاعر وبيئته نظرة بسيطة بل أدرك عمق التركيبة التي جعلت الصحراء محور الحدث الشعري، تصقل إبداعات الوجدان الإنساني ليتشكل حسه الجمالي، فالشعور بالندرة والفقدان والصراع، يترجم شعراً ليمثل سجلاً حضارياً.

بنيت نظرة المستشرقين على خلفيات فكرية متباينة تراوحت بين الرؤية الكلاسيكية للشعر الجاهلي تصاحبها نزعة استشراقية تسعى لكشف مظاهر البيئة العربية الجاهلية، من أبرز المستشرقين الذين تناولوا هذا الشعر بالدراسة والتحليل المستشرق الألماني كارل بروكلمان في عمله الموسوعي الشهير (تاريخ الأدب العرب)، "ومن ذا الذي يمكن أن يستغني عن تاريخ الأدب العربي"² قد سعى بروكلمان من خلال هذا العمل إلى رسم خريطة دقيقة لمساره في مراحل المختلفة، بداية من العصر الجاهلي وصولاً إلى العصور المتأخرة، وكانت ملاحظاته حول الشعر الجاهلي تحمل دلالات مهمة تعكس التصور الذهني الذي شكله عن هذا الفن الأدبي بوصفه ظاهرة لغوية وتاريخية في آن واحد. فالإنسان الجاهلي حير المستشرقين بإبداعه "لم يترك الشاعر الجاهلي من حياة أهله أمراً إلا طرقه، لقد مثل كل مظاهر الحياة العربية، رسم لنا البيئة رسماً دقيقاً، مثلها خير تمثيل، تناول كل جوانب البادية فتحدث عنها بتفصيل، صور ما فيها من جبال ووهاد وطرق ممتدة ومرابع خضر، ونبات زاه ووصف الآثار والدمن، كما وصف الأمطار السيول والسحب رسم مشاهد كثيرة لحيواناتها، وقص لكل حيوان قصة، وصور حال هذه الحيوانات في طردها وقتالها، في أمنها وخوفها، صورها قطعاناً مجتمعة، وأفراداً عازبة، واستعار تشبيهاتها وصورها، تحدث عن المنازل والديار، كما تحدث عن ارتحال أهلها، ووصف قوافلهم وهوادج نساءهم، وتابعتها في سيرها فرسم مخططاً لرحلتها مبيناً المواضع التي تنزل فيها، والأماكن التي تمر بها، ولم ينس أن يصف ما خلف الطاعنون من الحجارة والنوى والأثافي"³.

يبرز الكاتب غنى الشعر الجاهلي بوصفه سجلا حيا للحياة العربية في البادية، حيث لم يترك الشاعر جانب من جوانب بيئته إلى وطرقه بتفصيل دقيق، وقد رسم ملاحم الطبيعة من جبال ووديان نباتات وآثار كما صور الحيوان وتابع قوافل النساء في ارتحالهن، موثقا مشهدا رائعا للبيئة الصحراوية، ويظهر وعي الشاعر الجاهلي بالبيئة حوله، وقدرته على خلق صور شعرية تنبض بالحركة والحياة.

3. موقع الشعر الجاهلي في خريطة الأدب عند بروكلمان:

إذا عدنا إلى كتاب تاريخ الأدب العربي ونظرنا في تصنيف بروكلمان للأدب العربي ضمن العمل الموسوعي، تكتشف أن الشعر الجاهلي لم يحتل موقع المركز، بل نجد أنه عرضه كمدخل تمهيدي لا بد منه لفهم مراحل الأدب اللاحقة، بينما أفرد فصولا واسعة للعصر العباسي العثماني نظرا لتنوع انتاجاتها الثقافية والأدبية، وقد انعكس هذا التركيز في حجم الفصول المخصصة لكل فترة، حيث نال الشعر الجاهلي صفحات محدودة مع طرح نماذج مختارة لأغراض الشعر الكبرى، لكنه لا ينكر أنه مرحلة تأسيسية مهمة للأدب العربي وهذا التفاوت في الطرح بين العصور يعبر بعمق عن مشروع استشراقي لا يراعي التراث ويتجاهل البدايات على أساس أنه يمثل مرحلة أولى بدائية في تطور الأدب العربي، ونظرا لمكانة بروكلمان العلمية وتأثير كتابه على الأوساط العلمية، ساهم في تقزيم وتقليل مساحة وجود الشعر الجاهلي واهتمام الباحثين به عزز التصور التقليدي للجاهلية الذي يكتفي بالوصف والتغني بالبيئة الصحراوية القاحلة، والدراسات الحديثة كرد فعل على التهميش الذي طال النصوص الجاهلية وتعيد الصورة الحقيقية له كبنية رمزية وفكرية تستحق التفكيك والتحليل، فاتحة الباب أمام المناهج الاستشراقية الكلاسيكية تحاول تأطير التراث العربي بطريقة مخصصة.

تطرق بروكلمان للأدب الجاهلي وشعره "فبحث في أصل الأمة العربية التي يمثلها وتمثله، وصف شعوبها وأجناسها، وبيئتها المحيطة بها، وأسلوب حياتها، ونظام معيشتها، ثم وصف اللغة العربية وخصائصها، ونظر في أولية الشعر ومصادر معرفته، ثم تناول مشاهير الشعراء، وما بقي من آثارهم"⁴.

هذا يعزز مكانة بروكلمان كونه تناول الأدب من منظور يشمل أصل الأمة العربية وشعوبها، ونظر في نشأة الشعر العربي، معتبرا إياه أداة لفهم الهوية الثقافية.

4. الشاعر الجاهلي في وعي بروكلمان بين الفرد والقبلية :

تظهر كتابات كارل بروكلمان اشتراكا ضمن سردية استشراقية كبرى سعت إلى بناء صورة شاملة عن الحضارة العربية الإسلامية بشكل يخدم خلفياتها، حلقة مغلقة تمهد لظهور الإسلام، جعلها بروكلمان تقتصر على التفاخر، الوصف والحماسة، دون اعترافه بقدرات الشاعر الفكرية، وهي تدخل ضمن إطار إيديولوجي أقل حدة،

يفصل بين العرب الجاهلين والعرب المسلمين، بوصفهم شعبا انتقل من البداوة إلى التحضر مع ظهور الإسلام، وهذا دليل على أن بروكلمان مساهما ولو بالقليل في توضيح الانقسام بين التراث الجمالي المهمل والتراث العقلي المراد إثباته ذلك ما يقلل شأن الشعر الجاهلي مقارنة مع العلوم الأخرى.

يظهر كارل بروكلمان منذ الصفحات الأولى التي تحدث فيها عن الجاهلية أنه ينظر للشعر الجاهلي نظرة مزدوجة فهو من جهة يُقر بقيمته في حفظ اللغة، ومن جهة أخرى يشكك في صحة الكثير من رواياته.

يعكس هذا توجهها عاما في الفكر الاستشراقي يقوم على ربط موثوقية النصوص بالتدوين المبكر، واعتبار النقل الشفهي مدخلا محتملا للتحويل والإضافة، وبناءً على ذلك فإننا بروكلمان يرى في الشعر الجاهلي مادة لغوية مهمة لكنها تحتاج إلى التدقيق في معالجتها.

من أبرز ما يلاحظ في كتاب بروكلمان أنه يتعامل مع الشعر الجاهلي من منظور تصنيفي تحليلي، فيسعى إلى تتبع أسماء الشعراء وقبائلهم، والأنواع التي نظموا فيها، ومحاولة ربط الشعر بالسياق الاجتماعي والسياسي الذي قيل فيه وعن الأغراض الشعرية التي اعتبرها من العناصر الأساسية التي تعكس التركيبة الفنية لهذا الشعر نذكر المدح، الفخر، الهجاء والغزل وصولا إلى أغاني الصيد والحرب والتي بدورها كانت تصب في قوالب تمنحها الجمال والرقى مثال امرئ القيس⁵:

فَمَا نَبَأُكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ	بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمِلِ
فَتُوضِحْ فَالْمِمْقَرَةَ لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا	لَمَّا نَسَجْتُهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ
تَرَى بَعَرَ الْأَزَامِ فِي عَرَصَاتِهَا	وَقِيَعَانِهَا كَأَتُهُ حَبٌّ فُلُقُلِ
كَأَنِّي عَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا	لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

5. الفخر عند زهير بن أبي سلمى⁶:

مَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ أُمْرٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعْلَمُ

في تناوله لشخصيات شعرية امرئ القيس وزهير وغيرهم... يظهر بروكلمان دراية بأهم القصائد والمناسبات التي قيلت فيها لكن في الوقت نفسه يميل إلى اختصار الروايات وتجنب الاستطراد ويشير إلى شعراء المعلقات قائلا "لا تتفق الروايات تماما على قصائد المعلقات، فالقصائد المتفق عليها من الجميع خمس معلقات امرئ القيس، طرفة وزهير ولبيد، وعمر بن كلثوم، والمعلقتان السادسة والسابعة هما قصيدتا عنتره والحارث بن حلزة"⁷.

إن اختلاف الروايات حول عدد وأسماء أصحاب المعلقة يعكس طبيعة التلقي الشفاهي لشعر الجاهلي، ويشير إلى تباين في معايير الاختيار والتدوين بين الرواة الأوائل، فبينما يجمع معظم النقاد على خمس معلقة لشعراء بارزين مثل امرئ القيس وطرفة وزهير وليد وعمرو بن كلثوم، فإن إدراج قصيدتي عنتره والحارث بن حلزة ضمن المعلقة ظل محل تباين، هذا التفاوت يدل على أن مصطلح "المعلقة" لم يكن وصفاً دقيقاً بقدر ما كان تعبيراً عن مكانة النصوص المختارة في الذاكرة الثقافية العربية، حيث لا تقوم قيمة القصيدة على معايير موضوعية ثابتة، بل على ما تمثله من رمزية أدبية وجمالية في الوعي العربي الجمعي.

6. وظيفة الشعر في المجتمع الجاهلي عند بروكلمان :

مثل الشعر نصاً يحاكي المجتمع العربي القديم، رمز البنية القبلية والاجتماعية التي حكمت حياة العرب قبل الإسلام كسجل تاريخي، ووسيلة للدفاع عن هوية وشرف القبيلة، فإن الشاعر لم يكن مجرد قائل بل يعمل على عاتقه مسؤولية تبرير مواقف القبيلة وتخليد مآثرها ونبد خصومها، وحضور الشاعر في ساحة الحرب أو الصلح ليس حضوراً مهماً، بل هو أداة من أدوات الفعل السياسي والاجتماعي، وقد أضاف بروكلمان أن هذا الدور المهم يثبت الكثير من الوقائع والأحداث في ذاكرة أصحابها حتى أصبحت بعض القصائد وثائق مرجعية تعبر عن حياة العرب ومعتقداتهم، متجاوزاً البناء الجمالي إلى الوظيفة الاجتماعية، الذي يجعل الشعر مفتاح لفهم المجتمع الجاهلي العربي القديم.

هو يقر بالقيمة الجمالية للشعر وارتباط الشاعر بالأغراض التي يتناولها، ويظهر بروكلمان ميلاً إلى اعتبار الشعر الجاهلي أكثر من مجرد سجل لغوي، بل منتج أدبي له خصوصياته الأسلوبية والجمالية، وهو ما يعد تجاوزاً للرؤية الاستشراقية التي تحصر الشعر الجاهلي في وظيفته التوثيقية أو الاجتماعية، لأنه تعامل مع شعراء الجاهلية على أنهم جزء من النسج الاجتماعي يبرز من خلاله بيئتهم الثقافية.

7. أثر الخلفية الثقافية لبروكلمان في تشكيل نظريته إلى الشعر الجاهلي :

هل نستطيع القول أن بروكلمان كان يستطيع قراءة الشعر الجاهلي فناً حياً لو لم يكن مشروطاً بمنهج استشراقي يبحث عن حضارات ويعيد تطويرها وفق طبيعة وتصور غربي؟

في الواقع أن نظرة كارل بروكلمان إلى الشعر الجاهلي جزء لا يمكن فصله عن المنطلق والسياق الفكري والثقافي الذي بدأ منه تجربته كمستشرق ألماني، تتلمذ على توجه علمي صارم، تنظر إلى النصوص العربية بوصفها وثائق لغوية تاريخية فقط، في فترة أولت فيه أوروبا اهتماماً كبيراً يجمع النصوص وتصنيفها والتعامل معها بإجحاف، متجاهلين بعدها الجمالي الإبداعي، هذا ما انعكس على فكر بروكلمان الذي لم يعيش التجربة الشعرية الجاهلية

بروح فردية وجماعية تحمل مضامين رمزية، بل اقتصر على دراسة علمية تحمل الملاحظة التصنيف والربط، لكنه لم يجرب شعور المتلقي الجمالي أو الناقد الأدبي، بل هيمن النهج الوصفي التوثيقي على دراسته وجعله باحثاً تاريخياً لا أدبياً ناقداً، فهذه الخلفية قيدت نظريته ضمن إطار لا يسمح بقراءة النص الجاهلي كخطاب مفتوح على التأويل والانفعال الفني.

تستطيع أن تلمس منهجه المتبع أنه تراوح بين الدقة التوثيقية والرؤية التاريخية، إذ انطلق من خلفية لغوية تهدف إلى تتبع تطور اللغة العربية ضمن إطار زمني متسلسل متأثر بالمقاربة التاريخية التطورية التي سادت أوروبا في وقت ما.

رغم أن بروكلمان لم يخصص فصلاً مطولاً للشعر الجاهلي كما فعل بعض المستشرقين الآخرين، إلا أن ملاحظاته المكثفة والمركزة تكشف عن وعي واسع بأهمية هذا الشعر في تشكيل الذوق الأدبي العربي، كونه انعكاس لمرحلة ثقافية كان لها أثرها العميق فيما تلاها من عصور، كما أن منهجه المتوازن بين التحليل والتوثيق، وبين الشك والإنصاف يجعل من رؤيته للشعر الجاهلي مرجعاً مهماً لكل باحث في الاستشراق بناءً على ذلك يمكن القول أن الصورة الذهنية التي رسمها كارل بروكلمان عن الشعر الجاهلي كانت قائمة على التقدير الذي يشوبه الحذر فهو يقر بهذا الشعر وجمالياته وقدرته التعبيرية، كما يعترف بفضله في حفظ العربية، لكنه لا يتردد في التشكيك في بعض نصوصه، مبتعداً بذلك عن آراء المستشرقين المتعصبين أمثال دافيد صموئيل مرجليوث ويقترب أكثر من موقف المعتدلين الذين حاولوا فهم الشعر الجاهلي دون إسقاطات استشراقية حادة، حيث سعى إلى تقصي تاريخ الشعر العربي عبر تمييز الأصالة من النسخ والابتكار الأدبي الذي طغى عليه في العصور اللاحقة، مبيناً أنه تعامل مع الأدب العربي في إطار أوسع من التأريخ الثقافي والاجتماعي، مما يقدم لنا فرصة لتفحص أثر تلك التصورات الغربية في الدراسات الحديثة عن الشعر الجاهلي.

8. تناول الشراح القدامى للشعر الجاهلي بالمقارنة مع رأي بروكلمان:

عند المقارنة بين تناول كارل بروكلمان للشعر الجاهلي وتناول الشراح العرب القدامى له، نلمس فروقات منهجية واضحة، نجد ابن سلام الجمحي الجرجاني وغيرهم نظروا إليه على أنه محور البيان العربي، زاد لفهم البلاغة واللغة العربية وتعليم القيم، كانت له عناية تحليلية خاصة مع مراجعته من كل الجوانب المعرفية شملت الصور البيانية، الأبعاد الثقافية، الجماليات التعبيرية، بل يعود بهم الأمر أنه ربطوه مع بدايات النقد الأدبي ومرجعاً للذوق الأدبي الجميل، أما بروكلمان فقد استند إلى خلفية استشراقية تعتمده على تمحيص وتصنيف النصوص مع التركيز على الطابع التوثيقي، فلم يخرج عن إطاره الجمالي وجعل اهتمامه بالشعر الجاهلي باباً يوصله لفهم طبيعة الأدب العربي تعامل معه بحذر مركزاً على البيئة الجاهلية، وميزه الطابع الشفهي مع تحليل البنية التقليدية للقصيدة دون

مراعاة الثقل الإبداعي للنصوص، على عكس شراح العرب الذين قاموا بمحاكاة النصوص وتفسيرها وتذوق معانيها، بينما قام بروكلمان بطرحها مبدأ المستشرق المؤرخ، وذلك يتيح النظر إلى أهمية التركيز على الفهم النقدي للمنهج لا تصنيف المضمون فقط.

نظرة بروكلمان للشعر الجاهلي كما سبق ذكره لم تتخطى استشراقيته بعيدا من محاولته كشف جمالياته أو تتبع بنيته الفنية الكامنة وراء نسج قصائده، بل انساق وراء خلفيات تاريخية وتصورات لغوية حول حياة العرب قبل الإسلام، وهذا يجعلنا نرى أنه يميل إلى التفسير الوظيفي للنص، إذ يجعل القصائد وثيقة تاريخية جامدة تستخدم كوسيلة لإبراز طبيعة بيئتها وأنماط حياة أصحابها، متغافلا عن معالجتها كأعمال فنية ناطقة تمثل وعي أمة وإراثا معرفيا لينتقل من كونه نص أدبي قيم إلى مرجع وظيفي وثائقي.

ذلك ليس بالجديد على الشعر الذي يتحول إلى أداة في يد المستشرقين الذين يعالجون الثقافة العربية كعنصر قابل للتفسير العلمي ظاهريا دون مراعاة خصوصية، يعكس تحيزا استشراقيا واضحا مع غياب تام للتفاعل الجمالي الذي يبنى عليه الشعر الجاهلي.

حمل التحيز الاستشراقي التركيز التام على الشكل النمطي للقصيدة الجاهلية وأنها ثابتة ومتكررة تفتقر إلى التمييز والتطور، متناسين بذلك أنها شكل لبناء معنى، فالمقدمة الطللية أو الغزلية التي تبدأ بها القصيدة الجاهلية هي انتقال دائم لأغراض أكثر تنوعا يعبر فيها الشاعر عن موقف من قبيلته أو حرب أو موت، وذلك لا يعيق تطورها، وبهذا المعنى لا تصبح مجرد إطار شكلي مفرغ للقصيدة الجاهلية، بل هي بنية مفتوحة تتسع لتشمل ميادين جمالية متنوعة لم يعرفها التناول الاستشراقي.

من جهة أخرى، خلق هذا التصور الاستشراقي للشعر الجاهلي أثرا ممتدا في بعض المحاولات النقدية العربية الحديثة التي تأثرت بالمناهج الغربية دون أن تحمل نقدا ذاتيا لتلك المناهج فتم تداول مقولات بروكلمان وأمثاله حول نمطية القصيدة الجاهلية وضعف جمالياتها الفنية، وإنها قالب كفرغ مع غياب الوعي التاريخي فيها، دون بحث معمق أو إعادة تقييم منصف لهذا المنجز الأدبي. وهكذا أصبح التناول القدي مرآة عاكسة للخطاب الاستشراقي الذي يكرر أحكامه دون أن يتجاوزها.

في المقابل فإن العودة إلى النصوص الجاهلية نفسها بعيدا عن القراءات الغربية، تكشف عن شعر يحمل روحا وكيانا حيا يتعامل مع الحب والأسى والموت والحرب في صور رمزية معبرة وبنية لغوية محكمة تتخطى مجرد وصفها لبيئة أو استعراضها لبطولات، وهذا ما يدعو إلى تجاوز النظرة الاستشراقية ومحاولة محاكاة النص كمنتج فني متكامل.

لا شك أن هذا النمط من القراءة العميقة للشعر الجاهلي يسهل تفكيك الصور الذهنية التي رسمها الاستشراق، ودعوة صريحة لتحرير النص من أحكام مسبقة لا تستطيع لمس روحه الشعرية، فالقصيدة الجاهلية

ليست فقط رسم صورية للبادية والصحراء بقدر ما هي إبراز لتجليات الوعي بالزمن وبالوجود الذي يسعى إلى تخليد كيانه في فضاء متغير وهو ما يمنحها طابعاً فلسفياً عميقاً يقتضي الدراسة، بل يمكننا القول أن كارل بروكلمان رغم دراسته ومعرفته باللغة والأدب العربي لم يستطع الوصول إلى ما يصبو إليه في تفكيك شفرات الشعر الجاهلي، فقد صب اهتمامه على البنية الخارجية له وتصنيفه أكثر من محاولة فهمه التجريبية الشعرية ذاتها، وهذا السبب فإن قراءته تعد وثيقة لفهم كيف نظر الغرب إلى التراث العربي، ومن هذا المنطلق فإن إعادة تقييم صورة الشعر الجاهلي في عيون المستشرقين وخاصة عند بروكلمان ليست مجرد مراجعة لتاريخ النقد، بل خطوة ضرورية لإعادة بناء علاقة واعية مع التراث، علاقة غير قائمة لا على الخضوع أو الدفاع، بل قائمة على الفهم والتعمق والانفتاح على معان إنسانية جمالية غفل عنها المستشرقون.

وإذا أردنا اليوم أن نستعيد الشعر الجاهلي مفهوم جديد، علينا أن نكتشف من الداخل كأدب يصور صراع الإنسان مع بيئته ومصيره بتفكير متمرد على الطبيعة يبحث عن الخلود في صحراء قاحلة، مع وعي وجودي يقظ، عندها نستطيع إعادة التوازن لما مسته الأيدي الاستشراقية، وأن يسترجع الشعر الجاهلي ذاته بوصفه كيان إنساني لا مجرد وصيد لغوي مندثر في أمهات الكتب.

9. تطور الشعر بعد الجاهلية امتداد أم قطيعة:

حين تناول بروكلمان الشعر العربي بعد العصر الجاهلي بدا مهتماً بطبيعة التحول الذي مسه، في بنيته، أغراضه ومعانيه، بعدما استنتج أن الشعر الجاهلي أساس انطلاق التجربة الشعرية العربية البعيدة عن الزخرف والتكلف، أما ما جاء بعده من شعر إسلامي وأموي حمل أبعاداً عن النقاء الجاهلي للشعر نتيجة لمعايير كثيرة منها الدينية الاجتماعية، الأخلاقية، إذ أن الطابع العفوي للقصيد الجاهلية بدأ يتلاشى خاصة حين أصبح الشاعر جلس البلاط للتقرب لأصحاب النفوذ والأمر، وهذا دليل على ضعف الصدق الداخلي، ذلك راجع لطبيعة الظروف التاريخية الجديدة التي حتمت عليه التحول الروحي وأقحمته في تجارب جديدة لم يعهدها الشاعر الجاهلي.

إن تحليل بروكلمان ركز على تمييز الطبيعي من المصطنع بعد ظهور أغراض جديدة مصاحبة للعصر الإسلامي مثل الزهد والحكمة وغيرها، لم يكن بروكلمان مجرد وارث تاريخي فقط، بل كان مقروناً برؤية نقدية تدرك طبيعة التحولات الطارئة على الشعر، وبين هذا التحفظ والتقدير، تتجلى نظرتهم للشعر الجاهلي كسيرورة تطور تخضع لتأثيرات حضارية متعددة.

كما أن منهجه المتوازن بين التحليل والتوثيق، وبين الشك والإنصاف يجعل من رؤيته للشعر الجاهلي مرجعاً مهماً لكل باحث في الاستشراق بناءً على ذلك يمكن القول أن الصورة الذهنية التي رسمها كارل بروكلمان

عن الشعر الجاهلي كانت قائمة على التقدير الذي يشوبه الحذر فهو يقر بهذا الشعر وجمالياته وقدرته التعبيرية، كما يعترف بفضلها في حفظ العربية، لكنه لا يتردد في التشكيك في بعض نصوصه، مبتعدا بذلك عن آراء المستشرقين المتعصبين أمثال دافيد صموئيل مرجليوث ويقترب أكثر من موقف المعتدلين الذين حاولوا فهم الشعر الجاهلي دون إسقاطات استشراقية حادة، حيث سعى إلى تفصي تاريخ الشعر العربي عبر تمييز الأصالة من النسخ والابتكار الأدبي الذي طغى عليه في العصور اللاحقة، مبينا أنه تعامل مع الأدب العربي في إطار أوسع من التأريخ الثقافي والاجتماعي، مما يقدم لنا فرصة لتفحص أثر تلك التصورات الغربية في الدراسات الحديثة عن الشعر الجاهلي.

يتضح من خلال استقراءنا لرؤية بروكلمان أن اهتمامه بالشعر الجاهلي لم يكن عابرا أو غير مدروس، بل شكل أهم جزء في مشروعه للتأريخ للأدب العربي، لقد كان تعامله معه على أساس أنه وثيقة ثقافية للإنسان العربي القديم، ترسم حياته من منطلق بيئته الصحراوية، ورغم أنه كان أسيرا لتصورات استشراقية غمطية، لكنه أضاف له الكثير من خلال نظريته لبنية القصيدة، ووظيفة الشاعر الذي أفرز ذلك النتاج الشعري المتقنة، لقد عبر عنه أنه صفاء الفكر العربي، صوت الذات الحرة قبل أن تتنازعها وتقيدها التغيرات الخارجية، من خلال تحليله لمسارات الشعر الجاهلي، كشف عن فهم عميق للصراع بين العفوية والاصطناع، بين الصدق والتكلف بمزيج يعكس تفاعل الاستشراق مع الهوية الأدبية للعرب، ووجب التفكير في كيفية تلقينا لتراثنا عبر عيون الآخر، دون أن نهمل القدرة على القراءة الذاتية النقدية التي تمنح النصوص حياتها المستقلة، وهذا ما يضع الباحث العربي أمام مسؤولية تحديد قراءته له، دون الخضوع لأحكام الماضي، أيّا كان مصدرها.

10. تأثير بروكلمان في تشكيل صورة الشعر الجاهلي في الدوائر الأكاديمية الغربية:

لا يمكن الحديث عن بروكلمان دون التطرق إلى الأثر الذي تركه كتابه "تاريخ الأدب العربي" في الدوائر العلمية الغربية، خاصة فيما يتعلق بنظرته إلى الشعر الجاهلي، فقد أصبحت تصنيفاته وملاحظاته مرجعية للباحثين في جامعات أوروبا وأمريكا ممن اعتمدوا مقارنته بوصفها مدخلا أوليا لفهم النصوص العربية القديمة.

إن الطبعة الشاملة والموسوعية التي طبعة كتابه، جعلته أداة أكاديمية لتدريس الأدب العربي وتاريخه، ما ساعد على ترسيخ الصورة التي رسمها بروكلمان عن الشعر الجاهلي كنمط تعبري مرتبط بالبيئة الصحراوية ومحدودا بالأطر الشفهية والقبلية، هذا التأثير لم يكن عابرا، بل امتد إلى الأبحاث المقارنة والدراسات الثقافية، حيث صارت من الضروري تمثيل الشعر الجاهلي تمثيلا دقيقا خارج القوالب الاستشراقية الجاهزة.

11. الشعر الجاهلي كمنظومة قيم في رؤية بروكلمان:

ينظر بروكلمان إلى الشعر الجاهلي باعتباره أكثر من فن لغوي أو إطار بلاغي، فهو يراه منظومة قيم متكاملة تعكس طرق تفكير العرب وأخلاقهم في تلك الحقبة، فعندما يقرأ قصيدة جاهلية لا يكتفي بتفكيك الأوزان أو تتبع الألفاظ بل يلتفت إلى المبادئ التي تنبثق من النص: مثل الكرم بوصفه سلوكاً يعبر عن الشاعر في إكرام الضيف أو مدح الغير، والشجاعة التي تتجلى بوضوح في مدائح الفروسية ومعارك البطولات، والشرف والوفاء عند الشعراء على نصرة قبائلهم والدفاع عن أسمائهم.

يرى بروكلمان أن هذه القيم ليست زينة فاخرة يطرز بها الشاعر قصيدته بل هي لب القصيدة وسبب بقائها حية في الذاكرة، فالشعر الجاهلي كان نظاماً قيماً متماسكاً: قصيدته ليست مجرد كلمات، بل خطاب اجتماعي حقيقي يمارس من خلاله الشاعر دور القاضي والموثق والمروج للأخلاق القبلية، ومن ثم فإن فهم القصيدة عنده يتطلب قراءة هذه القيم بوصفها عناصر تكون معنى النص .

12. خاتمة:

في ختام هذا التناول التحليلي لصورة الشعر الجاهلي عند كارل بروكلمان تتضح لنا ملامح مشروع استشرافي متكامل، لم يكن هدفه فقط ترتيب المادة الأدبية وفق منطق تاريخي، بل كان يروم بناء سردية متماسكة حول النشأة الفنية للعقل العربي.

لقد تعامل بروكلمان مع الشعر الجاهلي باعتباره وثيقة فنية وسياسيولوجية في آن واحد تعكس بنية المجتمع العربي قبل الإسلام، وتكشف عن طرائق التعبير الجمالي والرمزي التي مارسها الإنسان العربي القديم هذه النظرة، وإن بدت أحياناً محكومة بخلفية استشرافية كلاسيكية، إلى أنها قدمت مادة غنية يمكن قراءتها من زاوية متعددة، سواء على مستوى المنهج أو المقاربة أو التلقي.

إن أهمية هذا العمل لا تقتصر على مضمونه الوصفي، بل تمتد إلى تأثيره العميق في تشكيل تصور أكاديمي غربي على الأدب العربي في مراحله المبكرة.

من هنا تبرز الحاجة إلى إعادة تقييم هذه الرؤى الاستشرافية، ليس بغرض الرفض أو القبول، بل بهدف تفكيك بنيتها وتحليل آليات تمثيلها للآخر فالشعر الجاهلي كما تمثله بروكلمان لم يكن مجرد نصوص موروثية، بل كان عالماً كاملاً من الرموز والدلالات، وجزءاً لا يتجزأ من الصورة التي صاغها المستشرقون عن الهوية العربية في بداياتها.

13. الهوامش:

- 1 - أحمء سمائلوففشف؁ فلسفة الاسشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر؁ ءار الفكر العربى؁ القاهرة: 1998م؁ ص185-186.
- 2 - عبء الرحمن بءوى؁ موسوعة المسشرقىن؁ ط3؁ ءار العلم الملاىىن؁ بىروء: 1993م؁ ص98.
- 3 - بىى الجبورى؁ الشعر الجاهلى خصائصه وفنونه؁ ط6؁ منشوراء ؤامعة قار ىونس؁ بنغازى؁ لىبىا: 1993م؁ ص120.
- 4 - كارل بروكلمان؁ تاريخ الأدب العربى؁ ج1؁ ط1؁ تر: عبء الحلیم نآار؁ ءار المعارف؁ القاهرة؁ كلمة المآرجم؁ ص-ى.
- 5 - أمرو القیس بن حجر الكئىءى؁ ءىوان أمرو القیس؁ ط2؁ اعآنى به عبء الرحمن المصطاوى ءار المعرفة؁ بىروء: 1425هـ-2004م؁ ص14.
- 6 - أبو عببءة البآآرى؁ الحماسة؁ آح: محمد إبراهیم هور؁ هیئة أبو ظبى؁ الإمارة العربفة المآءة: 1428هـ-2007م؁ ص445.
- 7 - كارل بروكلمان؁ تاريخ الأدب العربى؁ ص67.

14. قائمة المراجع:

- 1- أبو عببءة البآآرى؁ الحماسة؁ آح: محمد إبراهیم هور؁ (الإماراء العربفة المآءة: هیئة أبو ظبى؁ 1428هـ-2007م).
- 2- أحمء سمائلوففشف؁ فلسفة الاسشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر؁ (القاهرة: ءار الفكر العربى؁ 1998م).
- 3- أمرو القیس بن حجر الكئىءى؁ ءىوان أمرو القیس؁ ط2؁ اعآنى به عبء الرحمن المصطاوى؁ (بىروء: ءار المعرفة؁ 1425هـ-2004م).
- 4- عبء الرحمن بءوى؁ موسوعة المسشرقىن؁ ط3؁ (بىروء: ءار العلم الملاىىن؁ 1993م).
- 5- كارل بروكلمان؁ تاريخ الأدب العربى؁ ج1؁ ط1؁ تر: عبء الحلیم نآار؁ (القاهرة: ءار المعارف).
- 6- بىى الجبورى؁ الشعر الجاهلى خصائصه وفنونه؁ ط6؁ (بنغازى؁ لىبىا: منشوراء ؤامعة قار ىونس؁ 1993م).